منشأ اللغات

من مباحث فقه اللغة التي يلقيها على طلبة القسم العالى لدار العلوم
حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ احمد الاسكندرى

اختلف الباحثون من الملبين وغيرهم قديماً وحديثاً في مأخذ اللغات على أقوال فقال قائلون انها توقيف من الله تعالى . وفسر بعض هؤلاء ذلك بالوحى وبعضهم بالالهام والاقدار . وبعضهم بالامرين

وقال آخرون انها من وضع البشر وفسر بعضهم ذلك بمواضعة حكماء البشر على اختراع أصوات خاصة يتفاهمون بها وتابعهم فى ذلك العامة ، وبعضهم باشتراك أفراد الناس فى ارتجال بعض الالفاظ ولقن غيرهم عنهم من غير سابقة اتفاق ، وبعضهم بالتدرج فى بناء الالفاظ من محاكاة أصوات الحيوان وتفاعل قوى الطبيعة بحرف أو حرفين الى التزيد بالتكرير والملحقات والقلب والتبديل

وقال مجموم بالتوفيق بين الأمرين بالتوقيف من الله بمعني الالهام والاقدار على الارتجال أحيانا وبالوضع بالقصد الى محاكاة الاصوات منه ومن غيره وتحويرها أحيانا

وعلي هذا الرأي جمهور المحققين من الملبين وغيرهم .

وتفصيله أن الانسان كسائر الحيوان مفطور علي أن يعبر عن انفعالاته النفسية بأصوات مختلفة فانا نسمع الهرة مثلا تموء ببضعة أصوات مختلفة تظهر بها بالهام من الله انفعالاتها ومطالبها فصوت الاستعطاء والاستعطاف غير صوت الزجر والنضب الخ وشأن الانسان الناطق بالطبع فى ذلك

ليس أقل من شأن الحيوان الأعجم بما ركب فيه من قوة الارادة والتمييز وما أودع أداة صوته من الموهبة العظيمة التى جعلته يحكى كل صوت وينوعه حروفا منطقية فبالقدرة على الحكاية أمكنه أن يعبر عن المعاني المشعرة بها الاصوات الفطرية فى نفسه وغيره بمحاكاتها بالحروف الشبيهة بها كما تفعل الببغاء التى هى دون الانسان في الادراك ، وبطبيعة القوة الناطقة التى أودعها الله إياه وميزه بها على سائر الحيوان أمكنه ارتجال بعض ألفاظ يعبر بها عن رغائبه القليلة فى بدء نشأته ثم تولد عنها غيرها .

فيتصور أنه عند ما كان يجيش صدره باظهار رغبة أو رهبة يصيح بصوت مصور بصورة ما فيسمعه غيره ويفهم منه مراده باضافة قرينة حال أو اشارة كما نشاهد ذلك كثيرا في بعض الاطفال عند محاولتها النطق ، فاذا وجد أنه أدى غرضه استعمله ثانية وثالثة في افهام رفقائه فيذاع بينهم ويعرف ولا يحتاج في استعماله الى قرينة وهكذا تفعل غيره فعله ويقلده الثالث والرابع وهكذا حتى تتكون من هذه الالفاظ المرتجلة والمحكية اللغة الاولى الضرورية للبيئة التى يعيشون فيها . ويتفق عليها طبيعة من غير تعمل ولا قصد الى الاتفاق ثم تتسع هذه اللغة بعوامل النمو المعروفة من تنوع الوضع وتشعب الالفاظ بتشعب المعانى الكلية الى معان جزئية ، ومن الاشتقاق والقلب والابدال والزيادة والنقص والنحت والتحويل من الحقيقة الى المجاز ، فيشتهر المجاز ثم يصير حقيقة . والتجوز في اللفظ قد يكون من عمل المرء وحده ، أو من عمل طائفة معه راقية تحاول علما أو صناعة وتضع لمعانيها وأدواتها مصطلحات تشتهر وتصير حقيقة عرفية

هذا وقد اختلف الحكماء فيما نطق به الانسان ابتداء ، فقال قوم أنه

نطق أولا بالاصوات الدالة على الانفعالات الوجدانية كالتأوه والانين والتأفف والقهقهة وأصوات الزجر والغضب والخوف . ثم كان يستعمل للمحسوسات الاشارة باليد وتزوية الوجه قياسا على العجماوات في ذلك، ثم وضع الالفاظ المحسوسات بالحكاية أو الارتجال ، ثم بالالفاظ الدالة على حركة النفس الفكرية . وقال قوم أنه ابتدأ بالاشارة الى المحسوسات ثم الوجدانيات ثم العقليات . والظاهر تساوي مرتبة الوجدانيات الفطرية ووضع أسماء المحسوسات وتأخر مرتبة العقليات في الوجود حتى لترى جميع لغات البشر عاجزة عن التعبير عن كثير من المعانى التي تخالج النفس بل عن كثير من معاني المحسوسات كالفروق بين الروائح والطعوم .

ثم اختلفوا أيضا فى أى أقسام الكلام وضع ابتداء ، فقيل أسماء المفردات والمصادر ثم الافعال ، ونحت من كليهما أسماء الضمائر والاشارة والموصولات والحروف ، وقيل الأفعال ثم الأسماء الخ

واذا قسنا نشأة النوع الانسانى على نشأة الطفل كما يقول جمهور حكماء العصر فقد لحظنا في الأطفال الذين عنينا بتربيتهم انهم نطقوا بالاسماء الدالة على رغائبهم الفطرية وبعض المحسوسات المحيطة بهم ، ثم نطقوا بأسماء المصادر ، ثم تلتها الافعال ، وسبق المضارع فيها أخويه الماضي والأمر ، ثم ببعض أسماء الاشارة وجاءت الضمائر والموصولات والحروف متأخرة وتلتها بقية المشتقات . ويؤيد هذا كثير من الحكايات التى تروى عن الأمم المتوحشة بأفريقية وجزائر المحيط الأعظم .

وكل ماذكرناه يقرب الى الذهن تصور نشأة اللغة الأولى للانسان . أما اللغات المتفرعة منها ثم من أنفسها فتنشأ من هجرة بعض طوائف

أهل اللسان الأصلى الى جهات متباعدة فيدفعهم التقاطع الى نسيان بعض الكلمات لعدم استعمالها في وطنهم الجديد والى تحريفها على طول الزمان ، ثم يرون فى هذا الوطن مالم يروه من قبل من أنواع الحيوان والنبات والجماد فيضطرون الى وضع كلمات على الوجه الآنف الذكر وهكذا ، فتتباعد اللغة الفرعية عن الاصلية كلما تباعد الزمان والمكان، ويزيده مدي التباعد اذا جاوروا أمما تتكلم بغير لسانهم فيستعيرون من لغاتهم كلمات تتمثل بعد حين فى بنية لغتهم، ثم اذا طال الأمد على أهل لغة وكثر عددهم وارتقت الصفات الانسانية فيهم اتسعت هذه وتعددت أساليب التعبير فيها وضاق حفظ أى فرد من علمائها عن أن يحيط بها

تعدد اللغات

المعروف عند المليين أن لغات البشر على تعددها ترجع الى أصل واحد هي لغة آدم عليه السلام وأولاده الاولين، ولا يمنع كثير منهم نشوءها تدريجا باحدى الطرق المشهورة من حكاية الاصوات والارتجال والاشتقاق والقلب والابدال ، ثم هم بعد ذلك مختلفون فيمن ورث هذه اللغات ، فالمعتقدون صحة التوراة المتداولة الآن من النصارى واليهود يقولون أن حادثة الطوفان حفظت لغات البشر فى لغة نوح عليه السلام وأبنائه الثلاثة: سام وحام ويافث وأهل السفينة ؛ وبقيت لغتهم واحدة حتى بلبلت ألسنتهم عند بناء برج بابل باذن الله تعالى ، فلم يعد بعضهم يفهم كلام الآخر ؛ فتشتتوا في الارض أمما وقبائل ذوات لغات مختلفة ، واشتهر من هذه اللغات ثلاث : لغة سام، ولغة حام . ولغة يافث (وهي اللغة الآرية المنسوبة الى آر أحد أبناء يافث) .

أما اللغة الأصلية أم هذه اللغات فلا يعلم ماهي ، وادعت كل أمة أن لغتها هي لغة آدم وأبنائه تخرصا وتعصبا ، فالسريانيون يزعمون أنها لغتهم ، والصينيون يدعون أنهم أقدم أمم الأرض ولا يعرفون شيئا عن الطوفان ، ويقولون أن كان ثمة بلبلة في الألسن فذلك بين أهل العراق ، ومثلهم الهنود ، ويفخر الأرمن أن لغتهم هي لغة نوح الأولى لأن السفينة رست على جبلهم الجودي ، ولا يقل عنهم العبرانيون فيقولون أن أقدم الكتب المدونة كتبت بلغتهم ، وقد ألقى العرب دلوهم في الدلاء فقالوا ان لغة آدم هي العربية وغلا بعضهم حتي نسب لآدم شعرا عربيا

أما غير المليين فيرون أن كل لغة نشأت في أهلها بالفطرة وعلى حسب طبيعة البيئة التي تسكنها ، غير أنهم لا ينكرون أن منها أصولا يتفرع عنها فروع وأن هذه الأصول لا ترجع الى أرومة واحدة

ولغات البشر أصولا وفروعا لا تحصى كثرة . وبعضهم قدرها بألفين ، وآخر بستمائة والفين . والمشهور منها الآن سبع طوائف كبيرة : وهي السامية والآرية والحامية والطورانية والمالقية والزنجية والأمريكية ولكل منها فروع

ولا يعنينا في درسنا هذا إلا الالمام بفروع اللغة السامية لانها أخوات لغتنا العربية

اللغات السامية

بينت التوراة المتداولة الآن بعض مواطن أبناء سام بن نوح بما لا يخرج عن بلاد مابين النهرين والشام وجزيرة العرب ، وأشركت معهم في

الأخيرين بعض أبناء حام ، فكان ذلك مغريا للبحاثة شلوزر فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى أن يسمي لغات الأمم التى سكنت هذه البلاد أو هاجرت منها لغات سامية لما أظهر له بحثه وتنقيبه فى أصولها وفروعها من أنها شديدة التشابه فى الألفاظ والمعانى فوق اشتمالها على حروف تكاد تكون خاصة بها مثل الحاء والعين والقاف والصاد والطاء وغيرها ، وتميز المؤنث من المذكر فى الضمائر والأفعال ، واتصال الضمائر بالأسماء والأفعال والحروف وغير ذلك ، ثم أتي بعده من وافقه على هذه التسمية ، وقسموا هذه اللغات السامية الى جملة فصائل باعتبار مواطن أممها ، لا باعتبار النسب الحقيقى وأشهرها ثلاث :

(١) اللغة الارمية القديمة (نسبة الى أرم بن سام) وتشمل لغة البابليين أهل (بابل) ولغة الآشوريين أهل (نينوي) ثم بتحرف اللغة البابلية عن أصلها قليلا سميت كلدانية . وتفرع من هذه السريانية الشرقية والغربية والارمية الثانية لغة أهل سورية القدماء وما يجاورها فى الصحارى من النبط . وهذه اللغة بفروعها بادت وهجر استعمالها فى التفاهم بعد أن كانت اللسان الرسمي لأهل الشام والجزيرة والعراق وشمالى جزيرة العرب أكثر من ثلاثة آلاف سنة امتدت الى ظهور الاسلام ، الا بعض السريانية والعبرية فى الكتب الدينية ويظهر أن الارمية القديمة هي العربية القديمة وأنها كانت لغة العرب البائدة

(٢) اللغة الكنعانية (نسبة الى كنعان أحد أبناء حام على رواية التوراة) وكان ينبغي أن يكون عدادها فى اللغات الحامية ، الا أن المحققين من الباحثين في أصول اللغات اعتبروها فرعا من السامية . وتشمل هذه اللغة (العبرانية القديمة) والصينية والقرطاجنية البائدتين ، أما العبرانية الحديثة فخليط من

القديمة والارمية والكلدانية اقتبسوها من أهل بابل زمن السبي فيهم

(٣) اللغة العربية وهي قسمان قديمة وحديثة :

فالاولى : اللغة السبئية ، وتشمل لغات اليمن القديمة من الحميرية والحضرمية والمهرية والقطرية والحبشية ، وبعضها بائد وبعضها باق متحرفا عن أصله فى لغات سواحل مهرة وحضرموت وبلاد الحبش

والثانية العدنانية أو المضرية التي غلبت على السبئية المتمثلة بعد فى الحميرية قبيل الاسلام الا قليلا ، وهى خليط من الارمية والعبرية والمضرية القديمة ، وبها نزل القرآن الكريم ، وانتشرت فيمن آمن به ، وعمت مشارق الارض ومغاربها

ويرجح كثير من محققى علماء اللغات أن المضرية القديمة من الفروع السامية ويري غيرهم أنها خليط من الحامية والسامية أسوة ببقية لغات سواحل افريقية من البجاة (البشاريين) والصومال وبعض طوائف الحبشة

اللغة العربية

تمتاز اللغات السامية من سائر لغات البشر بوفرة كلمها ، واطراد القياس فى أبنيتها ، وتنوع أساليبها ، وعذوبة منطقها ، ووضوح مخارج حروفها . وتفوقها فى كل ذلك اللغة العربية لتصونها زمن جاهليتها قرونا عديدة فى جزيرة العرب ، وتقدمها في السنن الفطرى التى نشأت عليه آمنة شر الامتزاج بلغة فاتح أو لهجة مغير ، حتى ظن كثير من الباحثين أنها وليدة مواضعة واصطلاح متعمد من حكماء أهلها ، لا أنها لغة فطرية تدريجية . وهى من أقدم اللغات ، بل هي أصلها على رأى كثير من علماء عصرنا الغربيين والشرقيين ، ولهم على ذلك أدلة وجيهة

ونذكر هنا أدلة لبعض جهابذة اللغات السامية فى مفاضلة له بين العربية واللغتين السريانية والعبرية

منها أنها أعم اللغات السامية وأشملها للفظ ، وأبقاها على ذير الدهر ، فقيها أكثر أصول العبرية والسريانية وهما أغنى اللغات السامية كلها

ومنها رجاحة جانب القياس عن اللغتين وبخاصة الافعال مزيدها ومجردها وكثير من المشتقات أما فيهما فقد يربى الشذوذ على القياس حتى فى الضمائر واتصالها وانفصالها

ومنها فقدان كثير من أصول الكلام فيهما وخلوده في العربية

ومنها سقوط أجزاء أصلية من بعض الكلام وبقاؤها فى العربية كالنون فى (أنت) و(أنتم) واللام في (ال التعريف) والنون من(مضارع الافعال المبتدئة بالنون)

ومنها أن الالفاظ المشتركة بين اللغات الثلاث وأحد حروفها (ضاد) عربية ينطق بهذا الحرف فى العبرانية (صادا) وفى السريانية (عينا)بقياس مطرد نحو (أرض) و (ضأن) و (قبض) فانها فى العبرانية (أرص) و(قبص) وفي السريانية (أرع) و(عاز) و (قبع)

فلو كانت هذه الالفاظ عبرانية لم يكن ثمة موجب لأن تقلب صادها فى العربية (ضادا) وفى السريانية (عينا) مع اشتمال كاتبيهما على (الصاد)، وكذلك لو كانت فى الاصل سريانية لم يكن من داع لجعل عينها (ضادا) فى العربية (وصادا) فى العبرانية ، اذ لاتخلوان من العين . واذ كان حرف الضاد لايوجد الا فى العربية — أي ان العبرية والسريانية فقدتاه — اضطر العبرانيون أن يجعلوه (صاداً) والسريانيون (عيناً)

وكذلك الالفاظ العربية المشتملة على حرف (الذال) جعلت ذالها فى العبرانيـة (زايا) ، وفى السريانيـة (دالا) بدون خلاف نحو (ذكر) و(عذر) و (ذراع) فانها فى العبرانية (زكر) و(عزر) و(زروع) ، وفى السريانية (دكر) و(عدر) و(دراع)

وكذلك الالفاظ العربية المشتملة على حرف (الثاء) جعلت ثاؤها فى العبرانية (شينا) ، وفى السريانية (تاء) بقياس مطرد نحو (ثالج) و(ثعلب) و(ثقل) و(ثور) و(ميراث) و(وثب) و(اثنين) و(ثلاثة)

فلا يجوز أن نقول ان هـذه الالفاظ كانت فى الاصل عبرانيـة وسريانية أي أن أصلها (شين) أو (تاء) اذ لو كانت (شينا) لبقيت بالشـين أو بالسين فى العربية والسريانية أسـوة بكثير من الالفاظ التى ينطق بها بالشين أو بالسين فى اللغات الثلاث ، وكذلك لو كانت فى الأصل بالتاء لبقيت على هجائها فى اللغات الثلاث كألفاظ أخري كثيرة

أحمد الاسكندرى
المدرس بدار العلوم